من أساطير الإغريق

(القصة الخالدة التي أوحت إلى شاكسبير روميو وجولييت)

التوت الأبيض والتوت الأحمر

أو (بيرام وتسبيه)

للأستاذ دريني خشبة

كان أجمل شباب بابل ، وكانت أجمل حسانها

كان فتنة في فتنة ، في جسم قوي ، وقلب حي ، وخلق حي ، وقوام مفتول ، ونفس حلوة ساكنة سجواء[1] ... وكانت قسيمة وسيمة ، خفية لطيفة ، غضة كالورد عطرية كأنفاس البنفسج ؛ تفتر عن فم خمري شتيت ، وترنو بعينين دعجاوين نجلاوين ؛ وترسل شعرها المُغْدَوْدِنَ [2] على ظهرها العاجيّ تارة ، وصدرها المرمريّ أخرى ، يداعبه النسيم ، وتقبّله الآلهة ، وتنتظم فيه حبّات القلوب

وكان بيتاهما متلاصقين ، فكان يراها وكانت تراه ، وكان يلقاها وكانت تلقاه ؛ وكانا يتلاعبان في الصغر ، طفلين كالملائكة ثم شبا ، فكانا ينفران إلى الخلاء والأدغال ، ويلتقيان عند النبع القريب ، ويتسلق بيرام أشجار التوت الأبيض — ولم يكن التوت الأحمر قد عرف بعد — فيهز أغصانها وأفنانها ، ويساقط الثمر الشهي اللذيذ على سندس العشب ، رطباً جنياً ... فتأكل تسبيه ، وتقر به عيناً ! !

ثم ترعرعا أيضاً ؛ ودبت الحياة الحلوة الجميلة ، حارّة متدفقة زاخرة ، في قلبيهما الصغيرين ؛ وأخذ الفؤادان الصغيران يشبان إلى الأعين السعيدة التقية الطاهرة ، يرى كل إلى صاحبه ، ويتزوّد كل من جمال أخيه زاد الهوى وذخيرة الحب ، للأيام المقبلات

ولم يعرفا أنه الحب ، ذاك الذي يخفق في صدريهما أول الأمر ولكنهما عرفاه ، وعرفاه معرفة كلها شجو وكلها حنين حين ألح عليهما وحين كانا يفترقان أشوق ما يكونان إلى لقاء ، وأصبى ما يكونان إلى اجتماع ... ثم عرفا كيف يتشاكيان وكيف يتباكيان وكيف يكون الليل جحيماً حيناً يقبل فيفصل بينهما بظلامه ، ويجمع بين روحيهما بسهده ودموعه وطويل أنينه ، وكيف يكون فردوساً خالداً حيناً يجمع بينهما في يقظة أو منام

ولم يقو بيرام على عذاب البعد ، فانفق وتسبيه على أن يكلم أباه ليكلم أباها في الخطبة ، ولكن الوالد أبى واستكبر ، ورفض أن تكون هذه الفتاة التي هي مطمح أبصار شبان المدينة زوجة لولده ، وكذلك أبى والد الفتاة ؛ ثم شجر الخلاف واتسع ، وكثرت شياطينه ، وأحيا عداوات قديمة ، فتدابر القوم وتناكروا ولكن ما في قلبي الحبيبين ظل على ما كان عليه ؛ بل ألهب البعد الذي جرّت إليه الخصومة أوار حبهما ، فازدادا هياماً ، وذابا غراماً ، وكانت عداوة أهليهما عليهما برداً وسلاماً

ولم يعد يفكر إلا فيها ، ولم تعد تفكر إلا فيه ، وراح ينظم الشعر يتغنى به برحاءه ، ويرسل موسيقاه يكلم بها السماء عسى أن ترق له آلهتها فترحمه مما يقاسي ... وراحت هي تبكي وتتكلم بلغة الدموع إلى نفسها الملتاعة ، وترسل آهاتها في صميم الليل تتردد بين النجوم الخفاقة الكلمى تتوسل إلى أرباب الرحمة والحب أن تدرك بلطفها ضعف الحبيبين المظلومين

وتصدعت السماء ، وانهمرت شآبيب الرحمة ، وانهل فيض الحنان ، وأمرت الآلهة فزلزلت الأرض زلزالها ... وكانت الغرفة التي ينام فيها بيرام ملاصقة للغرفة التي تنام فيها حبيبته تسبيه ، وكان يفصلهما جدار مشترك بين المنزلين المختصمين ، فأحدث الزلزال في هذا الجدار صدعاً صغيراً كالشعرة ، فوصل هواء الغرفتين ، ونقل كلام الحبيبين ، وأخذت موسيقى بيرام وغناؤه

(١) ساكنة (٢) المغدودن : الناعم الطويل

ينسابان إلى غرفة تسبيه ، وأخذ بكاء تسبيه وآهاتها تنساب فى غرفة پيرام ؛ وأخذت النجوى الحلوة ، والشكوى الجميلة ، وغزل الكلام ، وحنين القلوب ، يتنقل فى بروج هذا الشق كأنها كواكب السعد تحدوها الآهات اللتهبة ، وتذهب بها القبلات الحارة ، ترف بأجنحة من أثير من فم إلى فم ...

— تسبيه ، تسبيه !

— من ؟ من يناديني ؟

— تسبيه ، هو أنا ، أنا پيرام !

— من أين تتكلم ؟

— من هنا ... ألم تشعرى بالزلزلة ؟

— آه ! شعرت بها فى العشاء الآخرة ليلة أمس

— إنها أحدثت فى الحائط الذى يفصل بيننا شقا ... وأنا كلك منه

— پيرام !

— تسبيه !

— إذن لقد رثت الآلهة لحالنا !

— واستجابت دعاءنا يا تسبيه ، لقد حركتها موسيقاى !

— إذن كنت تعزف وتتغني ، بينما كنت أبكى وأئن وأذوى !

— لا ! ولكنى كنت أسكب نفسى دموعاً على أوتار القيثار !

— يالقسوة هذا الجدار يا پيرام ! إنه يفصل بيننا بشدة !

— هو على كل أرحم بنا من أبوينا ... أليس قد انفرج ليصل حديثنا ؟

— نشكره ، إن من الصخر لما يتفجر منه الماء !

— نشكره جداً يا تسبيه ... وأشكره أنا خاصة لأنه فرج عن قلبى بالتحدث إليك

— پيرام !

— حياتى !

— هل الجنة أجمل من سجننا هذا ؟

— إنه أجمل من أنضر الجنان يا تسبيه !

— وهذا الظلام ! أليس هو أضوأ من سنا الضحى ؟

— لأننا نتحدث فيه يا أختاه !

— أحب أن أسمع موسيقاك يا پيرام تتدفق فى روحى خلال هذا الجدار

— ليس أحب إلىّ من ذلك يا تسبيه

— أنا لم أسمعك تغنى مذ تناكر أهلونا

— سأفعل إن وددت !

— وماذا عساك تغنى ؟

— كل أغنياتي التى ترنمت بها فيك ؟

— ألا تغنى شيئاً آخر ؟

— للآلهة ! لأنها أنعمت علىّ بحبك !

* * *

وهكذا كانت أحاديث الحبيبين المعذبين كلما جنّهما الليل ، وضمها غاشى الظلام ؛ أحاديث كأوشية الروض ، وأفواف الزهر ونجوى البلابل ، ممزوجة بعبرة أو عبرتين يريقانهما على جفاء الأهل ، ولدد الطباع ، وقسوة الأيام

ولم يحتملا هذه الحال طويلاً ، فلقد شفهما الهوى ، وأنحلتهما الصبابة ، وفعل الحب فى قلبيهما الضعيفين أفاعيله . ففى ليلة سافرة البدر ، ساجية النسيم ، صمتت فيها الطبيعة ، وتكلم القمر ، دار بين العاشقين الحديث الآتى :

— تسبيه ؟ !

— پيرام !

— أوشك القمر أن يكون بدراً ياحبيبتى !

— إنه جميل الليلة ، وحبذا لو ظل جميلاً الليالى المقبلة ...

— إن القمر جميل دائماً ... أليس هو ابتسامة هذه الدنيا فى ليالى العاشقين ؟

— لكنه صامت أبداً ... إنه أبكم لا يبى !

— سو ... لا تقولى ذلك يا تسبيه ... قد تسمعك ديانا فتغضب !

— هل يتكلم ؟ هل يفهم ؟

— أما أنه يتكلم فحق ... لكنه لا يتكلم بلسان كلساننا ... إنه يتكلم بلسان من فضة ياتسبيه ، لسان له رنين حلو فى أعماق الروح ... ثم هو يفهم آلام المحبين لأنها تصعد إليه مع آهاتهم ...

— خيال شاعر وفلسفته !

— بل هو الحق ياحبيبتى ! لقد كان يكلمنى وكنت أكلمه . وكان يفهمنى وكنت أفهمه ، كان يكلمنى بآراده [1] وأضوائه ،

(١) أشعته

وهي لسان صامت ولكنه بليغ لَسِن ، وكنت أكلمه بوجداني مرة ، وموسيقاي أخرى ، فكان يضحك في الأولى ، ويرقص في الثانية ... تسبيه !

— ماذا يا بيرام ؟

— أتمنى لو غمرتنا أشعة القمر غداً ، في هذا السهل المنبسط

— غداً ؟ وكيف ؟

— ولم لا ؟ ألا ترغبين ؟

— وكيف أرفض ؟ أنا أتمنى ذلك

— إذن سنلتقي !

— وكيف أفعل يا بيرام ؟

— تنسرقين إذا نام أهلك ... لن يشعر بك أحد

— وأين نلتقي ؟

— عند مقبرة نينوس

— ... ؟ ...

— ألا تعرفينها ؟

— مكان رهيب !

— لكنه جميل رائع ! سنجلس ثمة بين يدي القمر ونتحدث ، ونشفي أنفسنا مما نجد !

— وتعزف وتغني ؟

— وقد نبكي !

— ... ؟ ...

— اتفقنا ! أليس كذلك ؟

— اتفقنا

— إذن أنتظرك ، إذا لم أجدك هناك ، عند النبع القريب ، تحت التوتة البيضاء ! وكذلك تفعلين

— أفعل ماذا ؟

— تنتظرينني ثمة إذا سبقتني !

— ترى ما ذا تبتغي ديانا مني ؟

— لا شيء ... لا شيء ...

* * *

ما كان أجملها ليلة سطع في حواشيها القمر ، ودحرج لآلئه على مياه النبع ، ودغدغ[1] بأضوائه العشب وأفنان الشجر فتبسمت وتضاحكت ، ونشر في أجوائها بخوره المصاعد من مجامر الورد ، ومذاهن البنفسج ، احتفاء بمقدم تسبيه ! يا لجمال الطبيعة ! لقد كان كل ما فيها موسيقى صامتة تنشر أحلى النغم حوالي هذه الحبيبة التي انسرقت تحت أسدال الظلام تمشي كالقطاة وترسل من فوق رأسها خماراً رقيقاً كسحابة الصيف تستر ما وراءها وليست شيئاً ! لقد كانت تتوجس في نفسها خيفة وهي تدب في سكون الليل ، كما يسري الحلم الجميل في خلد النائم

وذهبت تطوي الطريق وفي رأسها ألف فكرة عن هذه المجازفة ؛ وبلغت مقبرة نينوس آخر الأمر ، ولكنها لم تجد حبيبها عندها . ترى ؟ ماذا عوقه ؟ لقد كان رخام المقبرة نظيفاً ناصعاً ، ولقد كان شبح الفناء جاثماً فوقها يلمع في ضوء القمر ، كأنه يتلاعب بالسنين والأحقاب ، وكأنه يسخر من كل شيء فوق الأرض ! وبدا للفتاة الضعيفة كأنه يرقص كالسكران فوق الشاخص الرخامي ، ولكنها أخذت تصرف عن عينيها رؤى عفاريت الليل ، وتصاوير الوهم المريض ؛ ثم سخرت من خوفها وذكرت التوتة البيضاء ، والنبع الذي عندها ، فارتدت إليهما لتجلس ثمة ، ترتقب زورة الحبيب

وجلست عند جذع التوتة ، وجعلت تحدج الثمر الأبيض ، وتشتهي لو سقط منه شيء تأكله حتى يحضر بيرام ... ثم سمعت دبيباً يقترب ، فلم تشك أن بيرام قد أقبل ، ونبض قلبها بشدة واندرفت من عينها عبرة لم تفكر هذه اللحظة أن تذرفها ... ثم أبطأ الدبيب ... ووثبت تسبيه تمد عينيها الثاقبتين في أرجاء الدنيا الصامتة الرهيبة ، ولكنها لم تر شيئاً ، وعادت عفاريت الليل ترقص في وهمها ، ولكنها لم تبال ، وجعلت تجاهد نفسها مجاهدة لينة مرة ، عنيفة مرة أخرى ، وهي في هذا وذاك تفكر في حبيبها بيرام ، وتضرب في تأخره أخماساً لأسداس ... ثم ذعرت الفتاة ذعراً كبيراً ، وساخت الأرض تحت قدميها المرتجفتين أو كأن قد ... ذلك أنها لمحت شبح لبؤة تخرج من دغل قريب فجأة ثم تيمم شطر النبع الذي تعرش من فوقه التوتة . ماذا ؟ إنها لبؤة ضارية أقبلت ترتوي من ظمأ ملح وجواد[1] شديد ... وهي تتهنس[2] مع ذلك كأنها عروس ولكن من الجن

وأطلقت الفتاة ساقيها للريح ، ولم تحفل بها اللبؤة ، لأنها قد افترست فريسة قبل ساعة ونهشتها ، وهذا فمها ملوث بالدم الغريض الدافيء ...

(١) الدغدغة . الزغزغة .

(١) الظمأ (٢) تتبختر

لم تصنع اللبؤة شيئاً ، إلا أنها رأت الحمار الأبيض الذى كانت تسبيه ملتفعة به ، ملقى على الأرض ، فعاثت فيه ، وكأنما أرادت أن تمسح فمها به ، فلوثته بالدم ، ثم هممت نحو النبع رتوت على مهل ، وعادت أدراجها نحو الدغل الذى تركت فيه يسبها لتأتي على بقاياها

أما الفتاة فقد ظلت تجرى حتى بلغت شجرة ضخمة وجدت أصلها فراغاً فاختبأت فيه ، وراحت تلهث من الذعر والتعب ، تتمنى ألا ترتد اللبؤة إليها ... وقد أيقنت أن ديانا ، إلهة القمر ، سمعتها حين عابت على البدر عيه وبكمه ، فساقت إليها هذا وحش فى هذا الليل

* * *

ولم يمض طويل على تلك الأحداث حتى أقبل بيرام وفى نفسه ة ، وبقلبه قلق ، فقصد إلى مقبرة نينوس فلم يجد عند هاشيئاً؛ قف قليلا يبحث عن تسبيه فى كل شيء ! فى شجيرات الورد سائل الزنبق ، وفى العشب الخائف المذعور حول المقبرة ؛ لاه طائف من الوجد والذهول فراح يبحث فى السحابة الرقيقة ضاء التى انتشرت على وجه القمر فى هذه اللحظة ، مشبهة خمار تسبيه على وجهها الرقيق الناحل ... ثم ذكر ميعاده عند النبع القريب تحت التوتة البيضاء ، فانثنى ميمما شطرها ...

« يا للهول ! ويا للفزع الأكبر ! ! ما هذا ؟ خمار حريرى أبيض ؟ لمن هذا الخمار يا ترى ؟ أواه ! إنه خمارها لاريب ! لقد شهدتها تلتفع به مراراً ! يا أرباب السماء ! ما هذا الدم ؟ وأسفاه عليك يا تسبيه ! لقد قتلتك الوحوش فلن أراك بعد اليوم ! أنا السبب يا حبيبتى ! لقد جررت عليك هذا باقتراحى الضال ! ألا ليت أمي لم تلدنى ! أى وحش ضار اغتذى بك يا تسبيه ؟ أيها القمر القبيح الأبكم لم أغريتنا بهذا اللقاء ؟ أنت تستتر الآن حياء وخجلا من فعلتك التى فعلت ، وكنت بالأمس سافراً متبرجا ! أغرب أيها الأصفر كصفرة الموت فلا جمال فيك ! رد على موسيقاى وأغانى فأنت جبس[1] لئيم لا تستأهل منها شيئاً ! هات كل ما عندك لى هات ! هات دموعى وأشجانى وآهاتى ! هات سهدي وعبادتى ومناجاتي ! قتلت تسبيه تحت سمعك وبصرك ما أقساك يا صاحب الليالى المواضى ! أوه ... ولكن ... لا ... أنا التى قتلتها ، لاذنب لك يا قمر ... إنى أستغفرك ؛ أبق كل ذكرياتي عندك ، فلا آمن عليها إلا أنت ! أما أنا ... فهلم يا حسام أسكن هنا ... فى حبة القلب .... إرْوَ منْ هذا الدم الدافئ فلا أمل لصاحبك فى الحياة بعد اليوم ... »

وألقى الفتى المسكين نظرة على كل شيء حوله ، لاحرصاً على الحياة المرة ؛ ولكن ليظر إلى كل ما نظرت إليه تسبيه قبل أن يأكلها الوحش ، وليتزود من الأثر الذى تركته فى الوجود عيناها الحزينتان المفزوعتان ...

ثم أغمد سيفه في صدره ... وسقط يتجرع سكرة الموت !

* * *

وهدأ روع تسبيه ، فبرزت من مكمنها في أصل الدوحة ، لترى من أين كان يتردد فى أذنيها هذا النداء الحبيب . وكان شبح اللبؤة مايزال يتمثل لها فيفزعها فى الفينة بعد الفينة ، ولكنها كانت تسير بخطى وئيدة ، لأنها ماشكت مطلقاً فى أن النداء لحبيبها ، ولأن الصوت الفضى الذى كان يمتزج بأضواء القمر فيغمر أذنيها وقلبها ، كان مايزال يداعب أذنيها الصغيرتين ... ثم بدا لها أن تحث الخطى حتى تنبه بيرام إلى وجود لبؤة فى هذا السهل الجميل جعلته كالفلاة ... فأسرعت ، وأسرعت ! !

— من هذا المستلقى على حفافى النبع ؟ هو من غير شك !

ثم أسرعت أكثر من ذى قبل

— بيرام ؟ ! ماهذا ؟ السيف في صدرك ؟ لِمَهْ ؟ حبيبي ! رد على ! كلم تسبيه ! ها أنا ذى ! لم قتلت نفسك ياپيرام ؟ آه ! هذا الخمار الأبيض ! وَىْ ! إنه ملوث بالدم ؟ عاثت فيه اللبؤة اللعونة !

— تس ... بيه !

وأرسل القتيل هذا الاسم المحبب وحشرجة الموت تعتلج فى صدره ، ثم فتح عينيه قليلاً فرأى فتاته تبكي فوق رأسه ، فتبسم ... ثم مات !

— بيرام ! لا ! لا تمت ! لا بد أن تعيش من أجلى !

ولكنه مات برغم هذه الأمانى

— إذن أنا التى قتلتك يا حبيبى ؟ إشهدى يا توتتنا البيضاء !

ثم رفعت بصرها إلى فوق ، ولكنها بدلاً من أن ترى الثمر الشهى الأبيض ، رأت ثمراً أحمر يقطر دماً قانيا

— أوه ! رويت من دمه أيتها الشجرة فضرجت ثمرك من

(١) بكسر الجيم الثقيل الروح والجبان واللئيم